# الباب الثانى

## سيرة الرسول "صلى الله عليه وسلم"

* مشاكل السيرة ٠
* طفولة وشباب ٠
* النبـــوة ٠
* مكة تكفر بالدعوة ٠
* الهجـــرة ٠
* النبى فى المدينة ٠
* الخاتمـــة ٠

obeikandl.com

obeikandl.com

## سـيرة الرسـول
## صلى الله عليه وسـلم

**يشتمل هذا الباب على :**

**١ ــ مشاكل السيرة :**

ان التقاليد الأوروبية الضاربة بجذورها فى أعماق التاريخ تجعل من الصعب علينا أن نلتزم الحياد فى بحث سيرة محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ؛ فتأثير المسيحية متغلغل فى كل جوانب مجتمعنا، لدرجة لا تمكننا عن الفصل بين حياته ، وبين رسالته الدينية ، لأن هجوم بعض النقاد على القرآن ــ الذى هو دستور الحياة للمسلمين ــ قل بكثير من الهجوم على سيرة محمد ، ومقصدهم من ذلك افهام الأوروبيين أن من تكون حياته على هذا النحو ، لا يمكن أن يكون جادا فى دعوته للناس الى دين صحيح •

ساد هذا الرأى ــ ولا زال ــ بين كثيرين ، بل وصل الأمر الى أكثر من هذا ، فقد وصفوه صراحة ــ دون تورية ولا تكنية ــ بأنه محتال وسفاح وشهوانى • فالحقد السياسى ــ الذى نتــج عن انتشار الاسلام وسيطرته على كثير من مناطق العالم ــ والتعصب الدينى ــ دفعا هؤلاء الكتاب الى البحث عن الجوانب المظلمة لاستخدامها فى وقف المد الاسلامى ، فوجدوا نقطة بداية هذا الخط فى حياة النبى ( صلى الله عليه وسلم ) • فاستخدموها كدليل على أن الاسلام لا يصلح لشىء ــ للتنفير منه •

ولكن : ألا يتعارض هذا الموقف تعارضا مباشرا مع الحقائق المقررة لمفهوم الحياة المسيحية ؟ اذ يعتقد البعض ــ اعتقادا جازما مستندا الى نصوص عقدية ــ فى صك غفران فى يده ، ويستغنى بذلك عن العقيدة الحية ، التى تبعث الحياة فى كل شىء !!!

فلكى نصل الى الحقيقة فى حياة محمد ورسالته ، ينبغى أن نقبل على البحث بعقل متفتح ، وقلب صاف ، معرضين عن الزعم الباطل المسبق ، والوهم الذى لا أساس له ، مدققين فى الروايات التى تروى عنه ، حذرين فى تقييم كل ما يعرض علينا • قد يكون من غير الممكن

على الغربى المسيحى تحقيق هذه المثالية ؛ ولكن الجهد الصادق فى هذا المجال سوف يكون خطوة أولى على الطريق ؛ تتلوها خطوات ، خاصة وأن جو البحث فى عصرنا هذا — حيث تقاربت المسافات — أنسب وأسهل مما كان عليه الوضع فى القرون الوسطى ؛ اذ يعيش بيننا كثير من المسلمين ؛ مما يجعلنا لا نعتمد على الأبحاث المسيحية فقط ؛ بل نتصل بالمسلمين مباشرة فنسألهم ونناقشهم فيما يتعلق بدينهم ونبيهم ؛ وأعتقد أننا بهذا سوف نمزق أساطير ألف ليلة وليلة — التى حيكت حول الاسلام — ونسلط الأضواء على الحقائق السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية • وينبغى ألا ننسى أيضا أن كثيرا من المسلمين يبالغون فى تعظيم نبيهم ؛ فيدفعهم ذلك الى تصوير حياته تصويرا يقرب من الخيال الموجود فى قصص ألف ليلة وليلة ؛ على الرغم من أنه أكد أكثر من مرة أنه بشر ، لا يستطيع أن يأتى بكل ما يطلبون من معجزات •

اذا كان المؤمن بالمسيحية يهتم بالطريقة التى خرج بها الجزء الناسوتى لعيسى من عالم الأحياء ؛ لأنه يؤمن بالعهد الجديد ؛ ويعتقد فى مخلصه !!! فانه سوف يهتم أكثر — اذا أتيحت له الفرصة — بحياة محمد الخاصة •

ولما كان فى هذه الحالة لا يشعر برباط يربطه به — فربما تكون رغبته منصبة على معرفة ما اذا كان محمد قد عاش متدينا مثل عيسى — فسوف تكون هذه المقابلة خاطئة ؛ لأنه يؤمن بعيسى . وينفذ ما ورد عنه دون اعتراض ؛ بينما يشك فيما يسمعه من أخبار محمد المتعلقة بالوحى ؛ على الرغم من أن الانجيل اعترف بوجود أنبياء آخرين • وهذا هو مصدر كثير من الأحكام الخاطئة عن الاسلام •

هناك خطر آخر على عدم التحيز فى البحث ؛ ألا وهو : عدم التعمق ؛ فقد شاعت أحكام كثيرة بنيت على أدلة غير كافية — على الرغم من سهولة الوصول الى كل المصادر الموجودة فى عصرنا الحاضر — مما جعل الفهم الخاطىء يسود جبهة عريضة فى مجتمعنا ؛ فشاع سوء التفاهم الذى ينمى التناقضات الظاهرية بيننا وبين المجتمعات الاسلامية • وليس من السهل على الباحث — الذى يشعر بالمسئولية — أن يتصدى لهذا التيار ويوقفه ؛ لأن المهتمين بنتائج هذه الأبحاث قلة قليلة من الناس • ولكن ما يعزينا ويدفعنا الى الاستمرار فى هذا الطريق هو أن المعرفة القائمة على أساس متين ؛ سوف تنتشر بمرور السنين شيئا فشيئا ؛ الى أن تصبح من المسلمات التى يؤمن بها الناس •

**٢ ــ طفولة وشباب :**

تتصل حياة محمد بالمجتمع القبلى العربى القديم ، هذه حقيقة ، ينبغى على المرء أن يضعها نصب عينيه ، حتى يتجنب أى خطأ فى الحكم ، فلم تكن الحياة هناك ذاتية فردية ، بل احتل الفرد مكانا معينا فى الأسرة والعشيرة والقبيلة .

ثم تناول المؤلف قريشا ومكانتها بين القبائل ، وبنى هاشم ووضعهم فى قريش ، واستعرض أحداث السيرة النبوية ابتداء من الحديث عن عبد المطلب وعن عبد الله وآمنة ، مارا بموتهم وكفالة أبى طالب له ورعى النبى الغنم لأهل مكة ورحلته الى الشام ، وزواجه بالسيدة خديجة رضى الله عنها وأولاده منها ، فلم يخرج فى هذا عما جاء فى كتب السيرة ، غير أن هناك ثلاث مسائل ينبغى الوقوف عندها لتتضح الحقيقة .

**المسألة الأولى ــ حادثة شق الصدر :**

ذكر المؤلف هذه الحادثة كما وردت فى كتب السيرة ، غير أنه ذهب الى أنها أسطورة ، والى أن الدافع الى ظهورها فى المجتمع الاسلامى ، هى الآيات الأربع الأولى من سورة « الشرح » .

**ونحن المسلمين لا نوافقه على أنها أسطورة ، لأن كتب السيرة كلها ذكرتها ، فمن المستبعد أن يجمع كل هؤلاء على الباس أسطورة لباس الحقيقة ، وهم الذين كانوا يدققون ويحققون فيما يروون من أخبار .**

وانكار بعض علماء المسلمين فى العصر الحديث لهذه الحادثة ، استنادا الى أن ما ورد فى كتب التاريخ لا يعد من الحقائق العلمية المؤكدة ــ وهو ما دفع المؤلف الى اعتبارها اسطورة ــ لا يعد مطعنا يدخل منه أعداء الاسلام للهجوم عليه ، لأنها لا تتعلق بعقيدة ، وليس لها صلة بتعاليم الاسلام المفروضة .

أما ادعاؤه بأن الدافع الى ظهورها ، هو وجود الآيات الأربع الأولى من سورة « الشرح » ، فلا يقوم على دليل مستوفى الأركان ، ذلك أن الباحث ينبغى ألا يعتمد فى بحثه الا على ما يذكر فى الكتب المعتمدة ، لا على ما كتب فى عصور الانحطاط الفكرى فى المجتمع الاسلامى ، ولا على ما كتبه غير المتخصصين ، وما أكثرهم فى مجال الأديان .

ولم يربط المفسرون المتخصصون بين قوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك»(١) . وبين حادثة شق الصدر ، بل أجمعوا فى تفسيرهم لهذه الآيات على أن الله من على محمد صلى الله عليه وسلم :

بأنه أزال الحقد من نفسه وأودع فيها هدى ومعرفة وإيمانا وفضائل وعلوم وحكم .

وبأنه خلصه من دنس الجاهلية وفسادها فى نشأته .

وبأنه خفف عنه ما أثقل ظهره من أعباء النبوة والرسالة حتى يقوم بها ويبلغ رسالة ربه .

وبأنه رفع شأنه باختياره للرسالة .

وهى نعم تدل على أن الرعاية الالهية ستصاحبه .

ولا نجد ربطا بين هذه الآيات وبين الحادثة الا فى كتب لا وزن لها ، ولايعتمد عليها فى بحث علمى له قيمة ، وعليه فأى نتيجة تترتب على الأخذ من مثل هذه الكتب لا قيمة لها فى نظر الباحث المدقق .

المسألة الثانية ــ زواجه بالسيدة خديجة رضى الله عنها :

فقد روى المؤلف أن السيدة خديجة سقت أباها خمرا حتى أسكرته لتنتزع منه الموافقة على زواجها بمحمد بن عبد الله .

وأمانة البحث العلمى تحتم عليه ألا يقتصر على رواية واحدة فيما وردت فيه عدة روايات ، فقد جاء فى كتب السيرة :

أن خويلدا ( والد السيدة خديجة ) أبرم هذا الزواج وهو سكران. فلما أفاق أنكر ذلك ، ثم رضيه وأمضاه ، وفى ذلك يقول راجز من أهل مكة :

لا تزهدى خديج فى محمد  نجم يضىء كاضاء الفرقد

كما ذكرت رواية أخرى أن خويلدا كان اذ ذاك قد هلك ، وأن الذى أنكح خديجة رضى الله عنها هو عمها عمرو بن أسد ، كما يقال أيضا : أن الذى أنكحها هو أخوها عمرو بن خويلد(٢) .

---

(١) سورة الشرح : ١ ــ ٤

(٢) راجع السيرة النبوية لابن هشام : ( تحقيق مصطفى السقا وآخرين. ــ الطبعة الثانية ــ ١٩٥٥ م ــ ص ١٩٠ .

فليس فى الرواية الأولى ما يفيد أن السيدة خديجة رضى الله عنها سقت والدها الخمر لتنتزع منه الموافقة كما ذهب الى ذلك المؤلف • ومن المحتمل أنه شرب كعادة العرب آنذاك عندما يقام احتفال ، ولا شك أن خطبتها مناسبة تدعو الى الشرب ، فأكثر والدها منه ؛ الى أن جاءت لحظة الموافقة الروتينية بعد القـاء كلمات الخطبة ، كانت الخمر قد أسكرته ، فالموافقة الضمنية سبقت سكره ، وعليه فلا مجال هنا للطعن •

هذا اذا سلمنا بصحة هذه الرواية ، ولكننا اذا التزمنا بمبادىء البحث العلمى لا نستطيع ذلك ، لأن هناك روايتان أخريان ، تدلان على أن خويلدا لم يكن على قيد الحياة ، عندما تزوجت السيدة خديجة محمد ابن عبد الله ، مما يجعلنا نشك فى الرواية الأولى برمتها ، وهذا يسد المنافذ التى يريد أعداء الاسلام المروق منها للطعن بأى كيفية • فان وجدت عندهم الرغبة الصادقة فى التزام قواعد البحث العلمى مهما كانت نوع النتيجة التى يوصل اليها ، فيجب أن يلزموا الصمت ازاء هذه الحادثة ، فلا يتخذونها مادة للتشهير •

**المسألة الثالثة ــ أمية محمد صلى الله عليه وسلم :**

من المسلم به أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وظل كذلك حتى انتقل الى ربه ؛ غير أن المؤلف ذكر أن بعض المستشرقين المحدثين يرون أنه تعلم القراءة والكتابة وهو كبير ، عندما اشتغل بالتجارة ، الا أنه لم يعرف لغة أجنبية ؛ ومن هنا فقد أخطأ فى النقل عن الأديان الأخرى •

**هذا ادعاء لا وزن له ، ولولا الخشية من تأثيره على بعض المسلمين الذين لا صلة لهم بالدراسات الاسلامية المتخصصة لاهملناه :**

**فمن القواعد الأولية فى البحث العلمى أن يستند الرأى الى دليل •**

فأين دليل هؤلاء المستشرقين ؟

أن قالوا : مصادر اسلامية •• فقد افتروا كذبا ، اذ لا يوجد البتة مصدر واحد ــ مهما كانت قيمته ومركزه فى مجال البحث العلمى ــ يمكن أن نجد فيه أدنى اشارة الى أن محمدا صلى الله عليه وسلم تعلم القراءة والكتابة وهو كبير بل العكس هو الثابت ، اذ أجمعت المصادر كلها على أنه ظل أميا طول حياته وأكدت ذلك •

وان قالوا : مصادر غير اسلامية ، فالرد على ذلك من وجهتين :

الأولى : كيف يتيح عالم لنفسه أن يعتمد على مصادر الخصم للوصول الى نتيجة سلبية ، خاصة وأن الخصم غير حيادى ؟

الثانية : لم يذكر المؤلف تلك المصادر التى اعتمد عليها هؤلاء المستشرقون حتى نقيمها ، ومن المؤكد أنه لا يوجد مصدر واحد أيد هذا الادعاء ، باستثناء بعض النتائج التى ذكرها أمثال هؤلاء المستشرقين اعتمادا على افتراضات ، وهى لا تؤدى الى حقيقة علمية ، بل الى تخيلات يظنها الباحث المفرض حقيقة ، بينما هى لا تخرج عن دائرة الأساطير التى سيطرت على مجال البحوث الدينية فى العصور الوسطى .

أما ادعاؤهم بأنه أخطأ فى النقل من المسيحية واليهودية ، فيكفى للرد عليه أن الانسان الذى لم ينل حظا وافرا من الثقافة يستطيع أن يتبين خطأ هذا الادعاء ، ذلك أن النظام المنقول — فى جميع فروع النشاط الانسانى — لابد أن يحتفظ ببعض صفات المنقول عنه ، مهما عدل فيه وغير ، فأين هى سمات المسيحية واليهودية فى الاسلام ؟

لقد انفرد الاسلام فى العقائد والشرائع بالأصالة وخالف ما ورد فى الكتب الموجودة عند اليهود والنصارى .

ففيما يتعلق بالاله يقول أحد العلماء الأوروبيين :

« الدين الاسلامى هو الدين الوحيد الذى لم يتخذ فيه الاله شكلا بشريا أو ما الى ذلك من الأشكال .

أما المسيحية فان لفظة « الله » تحيطها تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن فى السن قد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال ، فمن تجاعيد بالوجه غائرة ، الى لحية بيضاء مرسلة مهملة ، تثير فى النفس ذكرى الموت والفناء ، ونسمع القوم يصيحون : « ليحيا الله » فلا نرى للغرابة محلا ، ولا نعجب لصيحتهم ، وهم ينظرون الى رمز الأبدية الدائمة ، وقد تمثل أمامهم شيخا هرما قد بلغ أرذل العمر ، فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء ؟ وكيف لا يطلبون له الحياة ؟

كذلك « يا هو » الذى يمثلون به طهارة التوحيد اليهودى ، فهم يجعلونه فى مثل تلك المظاهر المتهالكة ، وكذلك تراه فى متحف «الفاتيكان» وفى نسخ الأناجيل المصورة القديمة .

أما « الله » فى دين الاسلام الذى حدث عنه القرآن فلم يجرؤ مصور أو نحات أن تجرى به ريشته ، أو ينحته أزميله ، ذلك لأن الله لم يخلق على صورته ، وتعالى سبحانه ، فلم تكن له صورة ولا حدود محصورة ؛ وهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد لم يكن له كفوا أحد »(١) .

وفيما يتعلق بالعبادة : فمختلفة كل الاختلاف ، فصلاتنا ليست كصلاتهم ومناسك حجنا تختلف عن مناسكهم ، وقواعد زكاتنا لا تتفق مع ما يلتزمون به فى هذا المجال ، وصيامنا على النقيض من صيامهم .. فكيف يعقل أن يكون محمد قد نقل عن اليهودية والنصرانية ؟

والصحيح أن يقال : انه صحح دين الله الذين حرفوه ، وبين شريعته التى بدلوها وغيروها(٢) .

٢ ــ النبوة :

هيأ قيام السيدة خديجة بأعمال التجارة الوقت لمحمد للتفكير فى النواحى الدينية ، فهاله ما عليه القوم من عبادة الأوثان ، فاتجه الى عبادة الله وحده . وساعده على ذلك بعض العوامل التى وجدت آنذاك ، منها ما كان عليه الحنفاء من انصراف عن الأوثان ، ومحاولة البحث عن الحق ، ومنها ما سمعه من اليهود عن التوحيد عندما كان يزور أقاربه فى المدينة :

لم يثبت تاريخيا أن محمدا تردد على المدينة ، بل زارها مرة واحدة وهو ابن ست سنين ــ فى الرحلة التى ماتت فيها أمه وهى فى طريق العودة ــ ولا يعقل أبدا أن يعى طفل فى السادسة أمور الدين ، فضلا عن أعقد شىء فيه وهو التوحيد . كذلك لم يثبت أن محمدا كانت له صلة بالحنفاء ، أو كان يجلس اليهم ، انما المحادثة الوحيدة التى التقى فيها بأحدهم هى : عندما ذهبت به خديجة الى ورقة بن نوفل لتسأله عن ماهية ما حدث له فى غار حراء ، ويبدو من سؤال النبى صلى الله عليه وسلم ورقة ــ عندما قال له : ليتنى حيا اذ يخرجك قومك ! ــ

---

(١) أوروبا والاسلام ــ للدكتور عبد الحليم محمود ــ المكتبة العصرية ــ ص ٧٧ .

(٢) للمزيد من معرفة الأحكام التى خالف فيها الاسلام ما جاء فى كتب اليهود والنصارى الموجودة بين أيديهم ، اقرأ كتاب : ( بين الاسلام والمسيحية ) تحقيق وتعليق الدكتور محمد شامة ــ الناشر : مكتبة وهبة .

**« أو مخرجى هم »(١) أنه لم يكن يعرف شيئا من سيرة الأنبياء السابقين، ولم يكن له علم بما حدث لهم من قومهم حين دعوهم الى عبادة الله • وهذا دليل واضح على أنه لم يسمع شيئا عن هذا اطلاقا ، لا من اليهود ولا من الحنفاء •**

لم يكن جو مكة مساعدا على التأمل والنظر ، اذ كان يسيطر عليه النشاط التجارى الذى دفع الناس الى الجرى وراء السلطة والثروة ، فملئت حياتهم بالحقد والحسد والثأر ، وتعددت آلهتهم التى نصبوها حول الكعبة ، فوصلت الى أكثر من ثلاثمائة صنم •

ترك محمد هذا الجو وذهب الى غار حراء متأملا يفكر فى أمر قومه ، ويتمنى أن ينقذهم مما هم فيه من ضلال ، ولم يكن يأمل الا فى ردهم الى دين أبيهم ابراهيم عليه السلام الى أن جاءه الوحى وهو فى الغار •• ثم يسرد تفاصيل نزول الوحى على النبى ، وذهابه الى خديجة خائفا ، وحديثها مع ورقة بن نوفل •• الخ • وفى معرض حديثه عن الوحى والقرآن يذكر أن بعض المغربيين يعتقد أن ما كان يصيب محمد أثناء تلقيه الوحى ما هو الا نوبات صرع ، ولكن هذا خطأ من الوجهة العلمية ، وذلك :

— ان المصروع لا يتذكر شيئا مما حل به أثناء نوبة الصرع ، لأن — هكذا يقول المؤلف — حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطل ، وقد أثبت ذلك البحث العلمى وأكده ، ولم يكن ذلك يصيب محمد أثناء الوحى ، بل كانت تتنبه حواسه المدركة فى تلك الاثناء تنبها لا عهد للناس به ، وكان يتذكر بدقة بالغة ما يتلقاه ، ثم يتلوه بعد ذلك لأصحابه •

— وان الذى تنتابه نوبات الصرع بهذه الكثرة ، تضعف قواه بمرور الأيام ولكن محمدا ظل محتفظا بها حتى آخر حياته مما يدل على انها لم تكن نوبات صرع •

---

(١) عندما نزل جبريل بالوحى لأول مرة على محمد بن عبد الله فى غار حراء ، رجع الى خديجة وأخبرها الخبر ، فانطلقت به الى ورقة بن نوفل لتسأله عما حدث لمحمد فقال له ورقة : والذى نفسى بيده انك لنبى هذه الأمة ••• ليتنى أكون حيا اذ يخرجك قومك • فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أو مخرجى هم » ؟ فأجاب ورقة : نعم لم يأت أحد بمثل ما أوتيت الا عودى وان يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا •

**٤ ــ مكة تكفر بالدعوة :**

لو بدأ محمد دعوته أهل مكة باظهار معجزات حسية لهم ، لكانت معارضتهم له أخف ، ولــكنه كان يكرر دائمــا أنه بشر ويدعوهم الى الايمان بالله وباليوم الآخر ويطالبهم بتحرير العبيد ، وبأن يحسنوا معاملة النساء والأرامل واليتامى ، ثم حرم وأد البنات .

استنكر أهل مكة هذه التعاليم لأنها كانت غريبة عليهم ، فعارضوه واشتدوا فى معارضته ... استعرض المؤلف أحــداث مقاومة قريش للدعوة ، وتطورها من معارضة فردية الى معارضة جماعية ، تلك التى تمثلت فى مقاطعة قريش لبنى هاشم وفى ثنايا سرده للأحداث تناول :

أخبار من أسلم من وجهاء قريش مثل عمر بن الخطاب وحمزة ابن عبــد المطلب .. و .. و الخ . ودفاعهم عنه بجانب الــدرع ذى الجناحين الواقيين له ، وهما زوجته السيدة خديجة رضى الله عنها ، وعمه أبو طالب .

وهجرة المسلمين الى الحبشة .

وحديث الاسراء والمعراج الى أن وصل الى التجهيز للهجرة الى يثرب . وفى هذا الباب نتوقف عند نقطتين .

**الأولى ــ قصة الغرانيق :**

يذكر المؤلف أنه حين اشتدت الوطأة بمحمد وصحبه ، نزل الوحى بأن الله اعترف ببنوة ثلاثة من الأصنام كبنات له ، فأدخل ذلك السرور على المسلمين وهدأت ثورة المشركين ضد الدعوة ، ورجع المهاجرون من الحبشة عندما وصلهم النبأ ، ولكن الوحى عاد فصحح ذلك اللبس الذى حدث ويستدل على ذلك بنصوص اسلامية .

**قد يقال : ان المؤلف لم يأت بدعا من القول ، فالقصة رويت فى كتب اسلامية ، والمستشرقون يولونها اهتماما بالغا ، وعليه فمن الطبيعى أن يردد أوروبى لم يدرس الاسلام فى معاهد اسلامية مثل هذه القصة ، اذ ليست لديه الروح الاسلامية التى تدفعه الى محاولة تنقية التاريخ الاسلامى مما علق به ، لأن تلك الروح مصدرها المجتمع الاســلامى أو العقيدة ، وكلاهما غير موجود فى عالم هذا المؤلف ، فهو ليس مسلما ،**

ولا يعيش فى مجتمع اسلامى ، بل يسمع من المستشرقين دون أن يصحح له أحد ، ويقرأ كتبهم ، وليس فى متناول يده المراجع الأخرى التى تصحح هذه المفاهيم البعيدة عن الصواب ٠

والموقف يقتضينا أن نذكر ردا بسيطا ، يقتنع به كل قارىء ، مهما كانت درجة ثقافته ، ألا وهو :

— ان هذه الرواية التى ذكرت تلك القصة مشكوك فى صحتها ، واذا تطرق الشك الى دليل فقد حجيته ٠

— زد على ذلك أن المرء اذا قرأ الآيات التى أوحت بهذه القصة وهى :
« أفرأيتم اللات والعزى ٠ ومناة الثالثة الأخرى »(١) ٠
ثم أضاف اليها النص التى أحدث البلبلة وهو :
« تلك الغرانيق العلا ، وان شفاعتهن لترتجى » ٠
ما استقام المعنى أطلاقا ، اذ عقب هذا مباشرة — على فرض صحة النص — جاء قوله تعالى :
« ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك اذن قسمة ضيزى »(٢) ٠
فكيف يستقيم المعنى ، لو أقحم النص المفترى بين تلك الآيات ؟ لا يستقيم الا فى عقل سقيم !!!

الثانية — رحلته الى الطائف :

أرجع المؤلف رفض أهل الطائف دعوة النبى صلى الله عليه وسلم الى خوفهم على مصالحهم التجارية ؛ فقد كانت تربطهم بأهل مكة معاملات تجارية ، كانت ستتأثر لو اتخذت قريش منهم موقفا عدائيا ان هم أسلموا ٠

هذه قضية صحيحة الى حد ما ، وتحدث فى جميع المجتمعات البشرية فى كل العصور والأزمان ، ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد لرفضهم الاسلام بدليل أنهم رفضوه بعد أن أسلمت قريش وسلمت للنبى صلى الله عليه وسلم ، بل هناك أسباب أخرى ، منها أن الانسان مثل النبات ، مربوط فى مجتمعه بعدة جذور ثقافية واجتماعية وعقدية — وهى المصطلح على تسميتها بالعادات والتقاليد — وعند التحول فى أى ميدان من

---

(١) النجم : ١٩ ، ٢٠ (٢) النجم : ٢١ ، ٢٢

ميادين الحيـــاة ــ الاجتماعية أو الثقافية أو الدينية ــ لا يكون الأفراد متساوين فى القدرة على تقطيع هــذه الجذور ليتحولوا الى الاتجــاه الجديد فبعضهم يستطيع التخلص منها بسرعة ، والبعض الآخر يبطىء .. الى أن يصل الأمر الى أكراه بعض الأفراد على التحول ( قد تكون وسيلة الاكراه معنوية : وذلك عندما يجد المرء نفسه هو الوحيد ــ أو مع قلة قليلة ــ المتمسك بالقديم ) ، وموقف العرب من الآسلام لم يخرج عن هذه القاعدة ، تباطأ أهل مكة والطائف فى التخلص من العقائد البالية ، بينما أسرع أهل يثرب بالتحول الى الدين الجديد ، وهذا هو ما يعبر عنه قوله تعالى :

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء »(١) .

٥ ــ الهجـــرة :

لمـــا اشتد ايذاء قريش للنبى صلى الله عليه وسلم جاءه الفرج من ناحية المدينة فقد استمع اليه نفر من أهلها أثناء موسم الحج ؛ فآمنوا به ؛ وكانوا رسل الدعوة الى مدينتهم .. ثم حدثت بيعة العقبة الأولى والثانية التى اتخذ فيهـــا قرار الهجـــرة ويمضى المؤلف فى حديثه عن الهجرة . فيذكر أن « التكتيك » السليم المحكم ؛ هو الذى أنقذ محمدا من أهل مكة الذين خرجوا يتعقبونه ، ومن مراحل هذا « التكتيك » لجوئه الى غار يقع على عكس طريق المدينة ، ثم يتحدث عن لقاء أهل المدينة له وحرص كل واحد أن يستضيفه ؛ فكان قراره الحكيم ؛ وهو أن نترك الناقة وشأنها فحيث تبرك يحط رحاله .. وقد قرر عمر بن الخطاب بعد سبعة عشر عاما من الهجرة اتخاذها بداية التاريخ العربى .

**لم يذكر المؤلف المعجزات التى وقعت أثنـــاء الهجرة ، من نسج العنكبوت وتعشيش اليمامة على باب الغار ، وما كان من أمر سراقة وخبر أم معبد وغير ذلك من الأخبار التى وردت فى كتب السيرة ، ومن المستبعد عدم اطلاعه على هذه الأخبار وهو الذى سرد فى كتابه أخبارا تنبىء عن المـــامه بما جاء فى كتب السيرة كلها ، وعليه فمن المؤكد أنه اغفلها عمدا ، ولا يعد هذا نقصا أو تقليلا من قيمة البحث ، لأن العقل**

---

(١) الأنعام : ١٢٥

الأوروبى فى العصر الحديث لا يتقبل بسهولة أحداثا لا يعرف أسبابها المـادية ـ والمعجزات من هذا النوع ـ لذلك آثر المؤلف أن يتجنبها حتى يصل الى هدفه ، وهو تعريف القارىء الاوروبى بالاسلام ، دون أن يفقد اهتمامه بما يعرض عليه ودون أن يفقد ثقته .

وهـذا أسلوب ينبغى على الدعاة أن يلتزموا به ، اذا خاطبـوا المجتمعات الواقعة تحت تأثير التيارات المـادية .

كذلك ينبغى عليهم أن يبينوا لغير المسلمين ـ وللمسلمين أيضا فى بعض المواقف ـ أن الاسلام دين مبادىء وقيم لا ترتبط بالأشخاص ولو كان النبى نفسه ، وقد فهم ذلك المسلمون الأوائل ، فربطوا التاريخ بحادثة تتعلق بأمور الدعوة لا بشخص النبى ، فلم يجعلوا ميلاده بداية للتاريخ كما حدث فى الأديان الأخرى بل أخذوا بدايته هجرة الدعوة من المدينة التى اضطهدت فيها الى مدينة أخرى ، فتحت لها ذراعيها ، وأحاطتها بالرعاية والحنان ، ودافعت عنها بالروح والمال .

٦ ـ النبى فى المدينة :

وصف المؤلف موقع المدينة الجغرافى . وطبيعة أرضها وغلاتها ؛ ثم تناول تركيب المجتمع . فذكر انه كان يتألف من قبيلتين عربيتين كبيرتين . هما الأوس والخزرج ـ وكانتا فى صراع دائم ـ يحوط بهمـا ثلاث مجموعات يهودية هى : بنو قريظة ؛ وبنو النضـير ؛ وبنو قينقاع .

أراد النبى أن يجمع شتات هذه المجموعات المتنافرة ؛ فدعا الى عقد حلف دفاعى عن المدينة . يدخل فيه الجميع بما فى ذلك اليهود ؛ ولم يجبر أحدا على الدخول فى الاسلام بمقتضى الدخول فى هذا الحلف الدفاعى ؛ بل حرم على اليهود أن يبدأوا بشن حرب على أحد من تلقاء أنفسهم . وانما يساعدون فقط فى الدفاع عن المدينة . ومن المسلم به أنه لم يكن يسمح لأحد بأن يعقد حلفا مع أهل مكة .

اختفت الطبقية فى المجتمع الاسلامى الجديد . لأن الاسلام آخى بينهم ومحا كل تفاضل قائم على العرق أو النسب أو الوضع الاجتماعى كما تلاشت غريزة الأخذ بالثأر من نفوس العرب فى المدينة ؛ وحلت محلها غريزة الدفاع ضد من يحاربون الدعوة . وكان التسامح هو طابع

العلاقات بين سكان المدينة ، وهو من الانجازات الضخمة التى يحق للاسلام أن يفخر بها على مر العصور •

ازدادت قوة الاسلام بعد معركة بدر ، كما اتسعت هوة الشقاق بين المسلمين والكافرين عاما بعد عام ، فنشأ فى المجتمع الاسلامى مجموعة آمنت بالاســـلام فى الظاهر وكفرت به فى الباطن ، وهم الذين أطلق عليهم « المنافقون » •• ثم حلل سلوكهم فى المجتمع ودسائسهم وميلهم الى أهل مكة ، كما ذكر أن الأيام أظهرت أن طبيعة علاقة اليهود بالمسلمين لم تختلف عن طبيعة المنافقين ، اذ كانوا يتحينون الفرصة للنيل من الاسلام ، وفصل القول فى الصراع الذى اندلع بينهم وبين المسلمين — ذلك الصراع الذى أدى الى قتل البعض وطرد الآخرين من الجزيرة العربية •

سرد المؤلف ما حدث بعد الهجرة من تشريعات ، وغزوات كما جاءت فى كتب السيرة ، الا أنه أخطأ فى بعض تحليلاته ، وسنبين رأيه فيها ثم نرد عليه :

**( أ ) تحويل القبلة :**

يرى المؤلف أن اليهود عندما قلبوا ظهر المجن لمحمد ، فاتهموه ، وأنكروا نبوته ، تحول محمد عن سياسته الرامية الى التقرب منهم ، فحول القبلة من بيت المقدس الى الكعبة •

**يخطىء من يعتقد أن الله فرض التوجه الى بيت المقدس فى الصلاة ثم حول القبلة الى الكعبة فى مكة ، ذلك أن التوجه الى بيت المقدس لم يكن سوى اجتهاد من النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يكن أمامه سوى الكعبة وبيت المقدس ، والكعبة تحيط بها الأصنام ، ويقيم المشركون حولها طقوس عبادتهم ، فاختار بيت المقدس قبلة ، لأنه لا زالت له صلة — وان كانت واهية — بمنبع التوحيد ، ثم جاء الوحى حبلغا أن الكعبة — رغم ما حولها — هى قبلة المسلمين ، لأن الله علم أنها ستتطهر من هذا الرجس عما قريب •**

**وعليه فلم يغير محمد القبلة ، لأنه وقع فى نزاع مع اليهود — كما يدعى المستشرقون — ولم ينسخ فريضة التوجه الى بيت المقدس بتحويل القبلة الى مكة كما يفهم ذلك بعض المسلمين •**

**(ب) صيام رمضان :**

كذلك حول الصيام من أيام متفرقة الى فرض صيام شهر رمضان مخالفا بذلك اليهود •

**والرد عليه فى هـذه النقطة لا يختلف عن جوهر الرد فى النقطة السابقة فالصيام كان اجتهادا ، ثم فرض صوم رمضان ، ولا يعد هذا مطعنا على الاسلام ، لأن الفروض لم ينزل بها الوحى دفعة واحدة ، فكان من عادة النبى صلى الله عليه وسلم أن يجتهد فيما لم ينزل فيه وحى ، فاذا جاء الوحى جب كل اجتهاد سبقه •**

**(ج) غزوة بنى قريظة :**

زعم المؤلف أن تسامح محمد مع اليهود تحول الى ثورة عليهم أدت الى قتل رجالهم واتخاذ نسائهم وأطفالهم عبيدا •

**يركز المستشرقون على غزوة بنى قريظة •• ويتخذون من أحداثها مادة للهجوم على الاسلام ، وأحب أن أسألهم — ومن يدور فى فلكهم — هذه الأسئلة :**

**— كيف يتصرف مسئول فى أرقى دولة حضارية ، لو ثبت أن مجموعة من الطوائف التى يتكون منها شعبه تآمرت مع العدو للقضاء على جيش الدولة وكيانها بأكمله ؟**

**— وماذا فعل الحلفاء — فى العصر الحديث ، الذى يتغنون فيه برعاية حقوق الانسان — بمجرمى الحرب فى محاكمة « نورنبرج » ؟**

**قد يقال انهم ارتكبوا جرائم قتل جماعية •• فاقتص منهم !!**

**فهل اقتص المجتمع الدولى ممن قتل المسالمين — حتى الأطفال والنساء — فى دير ياسين ؟**

**ان ما حدث فى غزوة بنى قريظة لم يكن سوى حكم محكمة ، اختار المتهمون فيها قاضيهم ، فحكم عليهم بما يجب أن يكون ، ولا تختلف هذه المحاكمة عن محاكمة « نورنبرج » بل تفضلها فى أن المتهمين هم الذين اختاروا القاضى ، أما فى « نورنبرج » فكان الحكم فيها هو الخصم •**

**لو تدبرتم الأمـر فنظرتم الى المسألة دون تحـيز ، لأدركتم أن ما حدث فى غزوة بنى قريظة هو اجراء لازم تتخذه كل دولة تجد نفسها**

في مثل هذه الظروف ، ولا يوجه اليهـا النقد الا من المغرضين أو الغافلين ٠

(د) التعرض لعير أبى سفيان :

ادعى المؤلف أن المدينة أصيبت بمجاعة نتيجة لهجرة ٢٠٠ أسرة اليها فاضطر ذلك محمدا الى اتخاذ اجراء للخروج من هذا المأزق فوجه المسلمين الى التعرض لقافلة قريش التى كان يقودها أبو سفيان ٠

هذا الادعاء باطل من أساسه ، لأن المدينة كانت غنية بخيراتها ، فلم تحدثنا كتب السيرة بحدوث مثل هذه المجاعة ٠

ـ فمن أين استقى المؤلف هذه المعلومات ٠٠ ؟

لا شك أنها استنتاج من تصورات خيالية فى ذهن المستشرقين ٠٠ ذلك التصور خيل لهم أن التعرض للقافلة ـ هو الاستيلاء عليها ـ والدافع اليه هو احتياج أهل المدينة لمـا تحمله ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ الخ وليس هذا هو أسلوب البحث العلمى ، الذى يجب أن يقوم على حقائق ، وليس على افتراضات متخيلة ، زد على ذلك القرآن الكريم قد بين أن الغرض من التعرض للعير ليس للاستيلاء عليها ، بل الهدف منه هو احقاق الحق ، أى كسب اعتراف « دولى » بشرعية الدعوة ، كى لا يتعرض لها أهل مكة ، لأن ادراكهم للخطر الذى نتعرض له قوافلهم سوف يدفعهم الى المصالحة والتخلى عن الوقوف فى طريق الدعاة ٠٠ ومن يقرأ قوله تعالى :

« واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون »(١) ٠

يدرك هذا المعنى ٠٠ اللهم الا أولئك الذين تشدهم عاداتهم وتقاليدهم الى طريق العـداوة للاسـلام ، حيث يكون هدفهم الهجـوم عليه والكيد له ٠

ختم المؤلف هذا الباب بالحديث عن عمرة القضاء ٠٠ فذكر أن مظاهر التقوى التى بدت على وجوه المسلمين ؛ والتزامهم النظام أثر على سكان مـكة تأثيرا نفسـيا كبيرا ؛ فأدركوا القوة الروحية والفكرية للتعاليم

---

(١) الأنفال : ٧ ، ٨

الجديدة ، كما لمسوا مدى القوة التى تنبع منها • وعلى أثرها — أى عمرة القضاء — دخل عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد فى الاسلام وصارا من أكبر قواد المسلمين •

**٧ — الخاتمـة :**

لم تلتزم قريش بمعاهدة الصلح التى عقدتها مع النبى . فجهز جيشا ضخما لفتح مكة •• ويمضى المؤلف فى سرده لأحداث غزوة الفتح ؛ ويركز على العفو العام الذى منحه النبى لأهل مكة بعد أن أصبحوا فى يديه يتصرف فيهم كيف يشاء ؛ دون معارضة ، وهنا تغلب عليه جانب الصفح فعفا عنهم ، ثم يتحدث عن الأحداث التى تلت غزوة الفتح حتى جاءته المنية ، ففارق أصحابه دون أن يعين خليفة له •

**وعن الدولة الاسلامية يقول :**

« لم يعرف المسلمون فى الصدر الأول الفصل بين الدين والدولة وكانت المساواة بين الجميع فى الدولة الاسلامية سدا يمنع المشاحنات واراقة الدماء ؛ فقد نص فى سورة الحجرات على أن أفضل الناس عند الله أتقاهم :

**« أن أكرمكم عند الله أتقاكم »(١) •**

لكن المسلمين سرعان ما نسوا هذه الوصية بعد موت محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ، اذ عادت العنصرية القبلية تطل برأسها ؛ وكانت سببا فى انهيار الدولة العربية •

* * *

(١) الحجرات : ١٣